مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 06 العدد01 جانفي2023 ص ص 105ـ124
ر س ع و (ISSN): 2602ـX618 / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

أهل الذِمَّة في المصادر الإباضية المغربية

Dhimmis in Maghrebin Ibadhi sources

إلياس حاج عيسى[1]♦، عبد الحق شرف[2]

[1] i.hadjaissa@ens-lagh.dz المدرسة العليا للأساتذة-الأغواط

[2] abdelhak.cheref@univ-tiaret.dz جامعة ابن خلدون-تيارت

تاريخ الإرسال: 06/ 02/ 2022 تاريخ القبول: 10/01/2023 تاريخ النشر: 31/01/2023

الملخص: ينقسم الحضور الذمّي في المصادر الاباضية المغاربية إلى قسمين، قسم يتعلق بمصادر التنظير والتأصيل العقدي والفقهي، وفيها إيضاح لعلاقة المسلم "الإباضي" بالذمّي سواءً كان نصرانيا أم يهوديا أم مجوسيا. وتهتم هذه المصادر بالجوانب العقدية والفقهية من منظور إباضي، وفيها تأكيد على موقف الإسلام من أهل الذمّة في المجتمع المسلم، وهي آراء ومواقف تتواقف كليا مع التفسيرات السنيّة حول الموضوع، إذْ ترى أنه يحلّ من أهل الكتاب: الجزية ونكاح الحرائر وأكل ذبائحهم. ومن مصادر العقيدة والكلام الإباضية التي فصّلت في سياق حديثها عن الفِرَق حول الموضوع؛ كتاب الموجز لأبي عمار عبد الكافي التناوتي الوارجلاني، وكتاب أصول الدين لِتِبْغُورينْ بن داود المَلْشُوطي، ورسائل في الفِرَق لأبي عمرو عثمان بن خليفة السُّوفي المَارْغَني. وأما القسم الآخر، خاص بمصادر السير والتراجم والمسائل، فإننا نجد فيها نماذج من الواقع المغربي وصورة الذمّيين في المجال الإباضي المغربي. وعادة ما كان لفظ "الذمي" مرادفاً للفظ "اليهودي"، ذلك أن اليهود كانوا أكثر حضوراً وتأقلما وتأثيراً، مقارنة بالنصارى. وسنسعى من خلال هذه الورقة البحثية أن نَصِفَ ونحلّل ونفسّر ظاهرة الذمّي في الفضاء الإباضي المغربي، من خلال ما توفّر لنا من مصادرهم.

الكلمات المفتاحية: المصادر الإباضية؛ اليهود؛ النصارى؛ المجوس؛ الجزية.

Abstract: through this paper, we will seek to describe, analyze and explain the phenomenon of “dhimmis” in the Maghrebin Ibadhi domain, bu dealing with their sources. The dhimmi presence in Ibadhi Maghrebin sources is divided into two parts: A section related to the sources of jurisprudence with an explanation of the good relationship and an affirmation of the

♦ المؤلف المرسل

position of Islam towards the “dhimmis” in the Muslim community, where opinions and positions are completely compatible with the Sunni interpretations on the subject, whether he is a Christian, a Jew, or a Magus. These sources consider that it is permissible for both Christians and Jews: the tribute, the marriage, and the eating of their sacrifices. It have detailed the Ibadi belief and speech on the subject, including, the book Al-Mujaz by Abu Ammar Abdul Kafi Al-Tanaouti Al-Warajlani, and the book “Osoul al-Din” by Tibgurin bin Dawood al-Malshooti, and the letters in the sects for Abu Amr Othman bin Khalifa al-Soufi al-Marghani While the other section is concerned with the sources of biographies, translations, and issues, and it contains examples from the Maghrebin reality of the image of the “dhimmis” in the Maghrebin Ibadhi field. The term "dhimmi" was usually synonymous with the term "Jew", because the Jews were more present, adaptive and influential, compared to the Christians.

Keywords: Ibadism sources; Jews; Christians; the Magus; tribute.

مقدمة: تناول الباحثون بالدراسة فئة أهل الذمة في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، على ضوء المصادر التاريخية والجغرافية والمناقبية والنوازلية. بينما بقيت المصادر الإباضية المغربية تمثل زاوية مهمّة لم يُلتَفتْ إليها كثيرا، حيث يمكن من خلالها تحقيق تراكمية علمية حول الموضوع. وقد جاءت هذه الورقة البحثية لبيان ذلك؛ دراسة وتحليلا لموضوع "أهل الذمة في المصادر الاباضية المغربية"، والتي نرنو من خلالها إلى سدّ ثغرة هامة في مسار التاريخ الاجتماعي للمغارب، وإعادة طرح العلاقة الجدلية بين المسلم والذمّي، من منظور إباضي. ونفترض أن المصادر المتوفرة بنوعيها، العقدي والتراجمي، تتيح لنا تركيب صورة مقنعة عن فئة أهل الكتاب ضمن النسيج الاجتماعي الإباضي المغاربي.

وللوهلة الأولى، تبدو النصوص المرتبطة بأهل الذمّة في المصادر الإباضية غنية في بابها، إذ تسمح لنا برسم صورة واضحة المعالم عن علاقة الإباضي بالذمّي. فلا يكاد يخلو مصدر عقدي أو فقهي أو كلامي أو تراجمي-في حدود ما وقفنا عليه-من هذه الفئة، بل إن بعض الفقرات المبثوثة بين طيّيها تبدو أكثر ثراءً؛ إذ يتقاطع فيها التاريخ بالعقيدة والفقه الإباضيَيْن.

ولعلّ خير مثال على ذلك، ما وجدناه في رسالة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم إلى أهل طرابلس، والتي حفظها ابن سلام في كتابه "بدء الإسلام"، حيث خصّص فيها جزءًا مهما لأهل الذمّة، وشرح كيفية التعامل معهم من منطلق ديني، كما أنها تكشف لنا دلالات عدّة عن الحضور الذمّي في طرابلس الغرب في نهاية القرن 02هـ/08م.

ومن الأمثلة كذلك؛ كتاب السؤالات لأبي عمرو عثمان بن خليفة المارغنّي السّوفي[1] الذي يعتبر مصدرا متميّزا في السير والفقه والكلام الإباضي، وتبرز قيمته الكبيرة، في كونه صدر مطبوعا بتحقيق مميز قبل سنة فقط.

1-مواضيع أهل الذمّة في مصادر الفقه الإباضي:

خصّصت جلّ المصادر الاباضية المغربية مساحة في كتبها لأهل الذمّة، إمّا شارحة لآيات قرآنية تتعلق بهم، أو مبيّنة لشكل وطبيعة العلاقة المفترضة بينهم وبين المسلمين. ويلاحظ الباحث في هذا الصدد؛ أنه وفيما حاولت تلك المصادر أن تجتهد حول هذا الموضوع باذلة قصارى الجهد، إلاّ أن مرجعيتها المستمدّة من القرآن والسنّة كانت ظاهرة وبادية. ومن خلالها يمكننا تحديد ملامح المواضيع التي حظيت باهتمام الكتّاب الإباضيين خلال العصر الوسيط، وهي: تعريف أهل الذمّة، ظاهرة الجزية، مسألة الوَلاية والبراءة، إضافة إلى عديد المسائل الكلامية والنوازل الفقهية، والظواهر التاريخية.

1- وهو من من فقهاء القرن 06هـ/12م. عن ترجمته؛ ينظر: محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر-قسم المغرب الإسلامي، استشارة ومراجعة محمد صالح ناصر، ج2، منشورات جمعية التراث، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999، ص ص287-288، ترجمة رقم: 620.

تعريف أهل الذمّة: وظّفت المصادر الإباضية لفظ "أهل الكتاب" مثلما ورد في القرآن الكريم[2] على وجه التعميم. كما وظّفت ألفاظ: اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة، على وجه التخصيص، بينما لم تستعمل المصادر الاباضية مصطلح أهل الذمّة إلا نادراً[3].

ويعدّ ابن سلام ممّن اهتم بهذا اللفظ وشرحه بقوله: "أن المقصود بهم اليهود والنصارى"[4]، في حين ذكر عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم بأنهم اليهود والنصارى والصابئة[5].

ولعلّ من أهم الشروح التي اشتهرت وسِيقت في موضوع أهل الذمة؛ شرح السّوفي المارغنّي معنى اليهود والنصارى[6]، انطلاقاً من قوله تعالى:﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّٰبِـُٔونَ وَالنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ**﴾[7]. فقد فصّل صاحبها في تعريف الصابئة لغةً واصطلاحاً تحت عنوان: "اختلاف العلماء في الصابئة"[8]، وأورد لنا نقولا هامة عن أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي[9] في موضوع الملل الخمس: اليهود والنصارى والصابون والمجوس والذين أشركوا، وأنهم من المشركين[10].

وفي موضوع آخر ذي صلة؛ اعتبر فقهاء الإباضية أنّ تبديل الأحكام الإلهية كُفرٌ، كالذي يحكم على أهل الكتاب بحكم المجوس، أو يحكم على المجوس بنكاح الحرائر

2- ذكر لفظ "أهل الكتاب" واحدا وثلاثين مرّة في القرآن.

3- السّوفي المارغني، كتاب السّؤالات في العقيدة وعلم الكلام، ج4، تح وتع: الحاج عيسى فخّار خضير، مؤسسة منارة الإيمان، غرداية، الجزائر، ط1، 1442 هـ- 2021 م ، ص: 308.

4- ابن سلام، بدء الإسلام، ص: 63-64

5- المصدر نفسه، ص: 94. أبو العباس الفرسطائي، كتاب أبي مسألة، ص: 229؛

6- السّوفي المارغنّي، كتاب السؤالات، ج3، ص: 78-82

7- المائدة، الآية: 71.

8- السّوفي المارغنّي، كتاب السؤالات، ج3، ص: 82 وما بعدها

9- أحمد بن محمّد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي النفوسي؛ أبو العباس، توفي في 10 ذو الحجة 504هـ / 18 جوان 1111م). عن ترجمته؛ ينظر: محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية، ج2، ص ص48-50، ترجمة رقم: 089.

10- السّوفي المارغنّي، كتاب السؤالات، ج4، ص: 334

وأكل الذبائح، أو يحكم على عبدة الأوثان بالجزية، وهم ممن يجيزون نكاح أهل الكتاب فيما بينهم[1].

هذا؛ وقد واتفق فقهاء الإباضية على عدم جواز إجبار الذمّي على تغيير ديانته، سندنا في ذلك، ما أورده أبو عبد الله محمد بن ويسلان-الطبقة العاشرة (450-500هـ)- في مسائله قائلا: "مَن أَكْرَهَ ذميّا على الإسلام أو على التوحيد فهو هالك". كما ذُكر عن سليمان بن يخلف، لما سُئل عن الذمّي المجبور على التوحيد، هل يُتَوَلّى؟ قال: يَهْلَك مَنْ جَبَرَه، فكيف يتولاّه ؟!. فقال محمد بن ويسلان: "سمعت مِن عيسى بن يوسف، قال: يُتَوَلّى هذا المُكره على التوحيد"[2].

الجزية:

يعتبر موضوع الجزية من أكثر المواضيع التي ذُكر في سياقها أهل الذمّة في المصادر الاباضية، فقد أشار أكثر من مصدر إلى ضرورة أن يدفع أهل الكتاب المقيمون في الدولة المسلمة الجزية، بعد "أن يُدعَوا إلى التوحيد"[3]. وفي حال فضّلوا البقاء على ديانتهم، يُنزِل عليهم إمام المسلمين "الذلّ والقهر والهوان"[4]، وما عليهم إلاّ إظهار الاستكانة والقبول.

ومن الجدير ذكره هاهنا، أنّ جل المصادر الإباضية التي نحت هذا المنحى، استندت في ذلك كلّه إلى قوله تعالى: ﴿ **فَتِلُواْ ٱلذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلذِينَ ءَاوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَّدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ** ﴾[5]. وقد فسّرها أحد فقهائهم بقوله: يعطونها "عن ذلّ وصغار؛ أن يأخذها منهم وهو جالس، ويدفعوها إليه وهم وقوف، وقيل: عن جَبْرٍ وإكراه"[6]. فإن استكانوا ودفعوها، حُرّمت دماؤهم وأموالهم وموارثتهم وسبي ذراريهم،

1- السّوفي المارغنّي، كتاب السؤالات، ج5، ص: 493، 503

2- مجهول، كتاب المعلّقات، ص:250

3- أبو حفص عمرو بن جُميع (حي ما بين ق.7-8 هـ)، عقيدة العزابة، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط1، 1417هـ/1996 م، ص: 40

4- أبو حفص عمرو بن جُميع، عقيدة العزابة، ص: 40؛ أبو العباس أحمد الفرسطائي، كتاب أبي مسألة، ص: 229

5- سورة التوبة، الآية 29

6- السّوفي المارغني، السؤالات، ج5، ص: 506-507

ذراريهم، وحلّ للمسلمين أكل ذبائحهم[1]، ونكاح حرائر نسائهم. وإن رفضوا دَفْعَها، حلّت دماؤهم وأموالهم وسبْيِ ذراريهم، وحُرّم على المسلمين أكل ذبائحهم، ونكاح حرائر نسائهم.

وقد برّر الإباضية ذلك، بأن مقتضى حجّتهم الفقهية أنه لا يصلح نكاح امرأة يحلّ سبيها لغيره، يُستشَفّ ذلك من كلام السّوفي المارغنّي في قوله: "فدماء أهل الذمّة حرام، والجزية منهم حلال"[2].

وأما المجوس؛ فتنسحب عليهم الآراء نفسها التي ساقتها المصادر الإباضية في تحديد العلاقة مع أهل الذمّة، إلاّ أن أمر المجوس يختلف هاهنا، وذلك في كونهم وبخلاف غيرهم مِن أهل الذمّة؛ يحرم أكل ذبائحهم، ونكاح حرائر نسائهم، سواءٌ أَعْطَوا الجزية أم لم يعطوها. وقد برّر عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم ذلك في رسالته إلى أهل طرابلس، بأن هذا من هدي وسيرة الرسول ﷺ في الملل كلها[3].

كما أن الجزية عند فقهاء الإباضية، تجب على كل بالغ صحيح العقل منهم، دون النساء والعبيد والصبيان[4]. وقد قدّرها صاحب "عقيدة العزابة" بعشرة دراهم، ويُزاد فيها على النصراني درهمان. وهو ما أشار إليه صاحب كتاب "نخبة المتين في أصول تبغورين" بشيء من التفصيل قائلاً: "...يَأخذها منهم [الإمام] في كل شهر؛ اثني عشر درهما مِن كل نصراني هو أهل لها، وعشر دراهم مِن كل يهودي هو أهل لها، وعلى الصابئ الذي هو أهل لها ما على النصراني"[5]. وللأسف الشديد؛ فإن صاحب "عقيدة العزابة" لم يوضّح نوع هاته الدراهم، ولا سبب زيادة الدرهمين على النصراني.

ورأت الإباضية الوهبية؛ أن أخذ الجزية من أهل الذمّة لا يُترك لعامة المسلمين، وإنما يوكل أمرها إلى إمام المسلمين أو عامله، على قدر اتفاقه معهم، وأشار السّوفي إلى رأي عبد الله بن عبد العزيز، وهو من إباضية المشرق الذين اختلفوا مع أبي عبيدة مسلم

1- السّوفي المارغنّي، السؤالات، ج5، ص: 496-497

2- المصدر نفسه، ج3، ص: 29

3- ابن سلام، بدء الإسلام، ص ص 94-95. أبو حفص عمرو بن جُميع، عقيدة العزابة، ص: 40، 42

4- أبو العباس أحمد الفرسطائي، كتاب أبي مسألة، ص: 229؛ أبو حفص عمرو بن جُميع، عقيدة العزابة، ص: 41

5- أبو حفص عمرو بن جُميع، عقيدة العزابة، ص: 40-41؛ الثلاثي. عمر بن رمضان، كتاب نخبة المتين من أصول تبغورين، ضمن مجموع: كتب مختارة، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، (د.ت)، ص: 190

والربيع بن حبيب في بعض المسائل، والذي قال بأنّ الجزية ليست على عامة المسلمين بفرض، وإنّما فرضت عليهم الزكاة، ولكن لا يجوز للإمام أن يأخذها[1].

وقد أتى التفصيل في هذا الباب عند عبد الوهاب في رسالته إلى أهل طرابلس، حول مسألة أهل الذمّة –وقد جاء متطابقاً بشكل كلّي مع التأصيل السنّي-حيث تقاطع من خلالها في إجاباته على بعض النوازل الواردة إليه من نفوسة، في طرق التعامل مع النصارى المتساكنين معهم[2].

وربما يفهم من أسئلتهم تلك، أن المجوس كانوا كثرةً في طرابلس، أو لأنهم استفتوه في طرق التعامل معهم، أو لوُرُودِ بعض المخالفات في طرق التعامل معهم كالزواج مثلا، إلا أن هذا الاستفهام يبقى كله مجرد احتمالات واردة وتخمينات غير مؤكّدة، في ظل غياب دليل قاطع على ذلك.

الولاية والبراءة:

أجمعت المذاهب الإسلامية في عمومها على أن المحبّة في الله تكون للمتّقين الأبرار، والبراءة والكره والبغض تكون لأعداء الله، من العصاة والكافرين والمنافقين. وقد شكل هذا المبدأ ركيزة أساسية عند الاباضية، الذين أولوه عناية واهتماما كبيرا، وقالوا بِوَلايَة الجملة والوَلايَة الشخصية، كما قالوا ببراءة الجملة والبراءة الشخصية. وعن حقيقة الولاية والبراءة، نجد البرادي يعرّفها قائلاً: "حقيقة الولاية: حبّ الولي وتصويب أفعاله. حقيقة البراءة: بغض المرء وتخطئة أفعاله"[3].

وفي هذا الإطار؛ كان من الطبيعي أن تُبرز المصادر الاباضية، العلاقة العاطفية والروحية مع أهل الذمّة ضمن مبدأي الولاية والبراءة[4]. فهذا ابن سلام يتحدّث في قسم

1- أبو العباس أحمد الفرسطائي، كتاب أبي مسألة، ص: 229؛ السّوفي المارغنّي، السؤالات، ج5، ص: 504-505

2- عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، كتاب مسائل نفوسة، ص: 68، 141

3- البرادي. أبو القاسم بن إبراهيم، هذه رسالة في الحقائق المحتاج إليها، ضمن مجموع (28-51)، طبعة حجرية، المطبعة البارونية بالجدرية، مصر، ص: 39

4- حول الولاية والبراءة عند الاباضية، ينظر مصادر العقيدة والفقه الاباضيين، وينظر أيضاً: الطارشي سعيد، الولاية والبراءة والوقوف. غطاء ديني ومضمون سياسي، مجلة نزوى. مجلة ثقافية فصلية تصدر عن وزارة الإعلام، 1 أكتوبر 2012م، الرابط: https://www.nizwa.com؛ الهاشلي. يحي بن سالم بن خلفان، الولاية والبراءة عند الإباضية: المفاهيم والآثار، رسالة ماجستير، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 1426 هـ/2005م

الولاية والبراءة عن حقوق الجوار، وأقرّ له بذلك حقّا واحدا في الجيرة، حيث قال: "والجار الذي له حقّ واحد هو الذمّي اليهودي أو النصراني، له حقّ الجوار"[1].

كما أننا نجد التفاتة أخرى مهمة في هذا السياق، وذلك من خلال رسالة عبد الوهاب إلى أهل طرابلس، والتي حدّثهم فيها عن مبدأ الولاية والبراءة، واعتبر هاته الأخيرة على أنها التبرّؤ ممّن أَحدَث حَدَثًا، بأنْ أنكر القرآن أو الرسول أو الله، فيكون بذلك قد صار مشركا خارج من ملّة الإسلام، حلالَ الدّم والمالِ، تُحرم مناكحته وموارثته، ويسمّى بدينه الجديد؛ نصرانيا كان أم يهوديا أم مجوسيا؛ يستشف ذلك من قوله: "ويسمّى بالملّة التي دخل فيها، إن كان يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا، ويَلحقُه حكمها".

وقد أجلى لنا عبد الوهاب الفرق هاهنا وبيّنه، بين اعتباره من خرج من ملّة الإسلام، لا يخرج عن أمرين اثنين؛ أو لهما أنه مشرك حلال الدم والمال، فحكمه هنا ربما لأنه مرتدّ أو لأنه لا يتبع ملّة من ملل أهل الكتاب، وثانيهما اعتباره من أهل الكتاب أو مجوسيا، فحكمه حكم أهل الذمّة[2].

وأما في معنى البراءة في مجالها الرّحب، فقد نسبت إحدى المصادر الاباضية قولاً لابن عباس عن نافع بن الأزرق رئيس الأزارقة، يتبرأ من أفعاله وأقواله، عندما سأله ابن الأزرق سؤالاً خطيراً عن صفة الذات الإلهية، قائلاً: "أخبرني عن ربّك، كيف هو؟!" [3]فاستنكر منه ذلك، واتّهم ابن عباس أتباع ابن الأزرق بالغفلة عن توحيد الله، وأنهم يُسَمُّون مخالفيهم كفاراً وهم الظالمون، وكان ممّا رماهم به أنهم يأخذون بالشبهات وروايات أهل الكتاب[4].

مسائل كلامية:

وردت مسائل الجدل المرتبطة بأهل الذمّة، في المصادر الاباضية الكلامية المغربية، مثل كتاب "الرد على جميع المخالفين" لأبي خزر يغلا بن زلتاف (ت.380هـ)، وكتاب "الموجز" لأبي عمار عبد الكافي التناوتي الوارجلاني (ت.قبل 570هـ)، وكتاب "التحف المخزونة" لأبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي[5]، وكتاب "السؤالات في العقيدة

1- ابن سلاّم، بدء الإسلام، ص: 86

2- ابن سلاّم، بدء الإسلام، ص: 94؛ المزاتي، التحف المخزونة، ص: 492 وما بعدها

3- السّوفي المارغنّي، كتاب السؤالات، ج6، ص:248

4- السّوفي المارغنّي، كتاب السؤالات، ج6، ص: 248-249

5- أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي(ت.471هـ): من أهل الطبقة العاشرة: 450 ـ 500 هـ؛ الأصولي الفقيه. ينظر: الدرجيني، الطبقات، ص425.

وعلم الكلام" و"رسالة في بيان كل فرقة" لأبي عمرو عثمان بن خليفة المارْغَنّي السُّوفي (ت.حوالي 530هـ).

وعادة ما تكون المسائل الكلامية ذات بعد فلسفي، إذ هي ليست من هموم العامة. وربما وردت الأسئلة على سبيل الافتراض لا الواقع، أو ربما نقلتها مصادر مغربية عن واقع مشرقي، وهو حال المسائل التي وردت بشأن المجوس؛ ومنها سؤال طُرح في مجلس أبي عبيدة، فَحْوَاهُ أن رجلا كان على دين نبيء من الأنبياء، دعا رجلاً من المجوس إلى دينه فاستجاب له[1].

ويعتبر أبو عمار عبد الكافي من علماء الكلام المشهورين عند إباضية المغرب، وقد خصّص في كتابه "الموجز" نصيبا لمناقشة والردّ على مذاهب أهل الكتاب والمجوس، وكذلك فَعَل أبو عمرو عثمان بن خليفة السّوفي المارغنّي في كتابه "السؤالات".

وقد استعرض أبو عمّار أولاً معتقدات المجوس، التي تتركز على وجود إله قديم اسمه "هرمزاً"، وشيطان محدث خرج من فكرة الإله القديم، ونسبوا كل شيء حَسَنٍ للإله هرمز، وكل شيء قبيح وضار للشيطان. وكان انتقاده لفكرتهم يحوم حول كيفية تفسير أن الإله هرمز يخلق الشيطان وهو رأس الشرّ الذي مِنْه جميع الشرور. كما أشار إلى تكذيب المجوس بالرسل، وهو أمر يشمل فِرقاً أخرى ناقشها المؤلف وردّ عليها رداًّ واحداً. [2]

كما ناقش أبو عمّار عبد الكافي وعثمان بن خليفة السّوفي عقائد أهل الكتاب من يهود ونصارى، حيث كان البدء من مسألة تكذيبهم وإنكارهم نبوّة الرسول مُحَمَّد ﷺ، فقاما بعرض الحجج من القرآن ومن غيره، فخصّص عبد الكافي كلاما مفصّلا تحت عنوان: الدلالة على آيات نبينا مُحَمَّد ﷺ ومعجزاته، ثم ردّ على اليهود في القول في نسخ الشرائع والردّ عليهم في ذلك، ذلك أنهم قالوا بأن حكم التوراة لا ينسخ.

هذا؛ وشرح السّوفي افتراق اليهود في النَّسْخ إلى أربع فرق (الشمعونية، العنّانية، السّامرة، الأصبهانية)، وربما أوجد التقاطعات التوافقية والخلافية بين فرق أهل الذمّة وفرق المسلمين في مسائل كلامية. ففي موضوع عدم جواز نسخ الشيء قبل حضور وقت فعله، جعل اليهود والمعتزلة متوافقين، في حين أن الاباضية يجيزون ذلك[3]. وقد

1-أبي خزر يغلا بن زلتاف (ت380هـ/990م)، الرد على جميع المخالفين (الخوارج، المرجئة، المعتزلة ...)، تح: عمرو خليفة النامي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ط1، 1428 هـ - 2008 م، ص: 38.

2- أبو عمار عبد الكافي، الموجز، ج1، ص: 307-311

3- السوفي المارغني، السؤالات، ج4، ص: 47-50

ردّ كذلك على النصارى في قولهم على المسيح بما لا يجوز القول به[1]، ولم يَفُتْ أبو عمار أن يبيّن الفرق بين فرق النصارى: الملكنية واليعقوبية والنسطورية[2].

وفي الإطار ذاته؛ ناقش أبو عمار مسائل كلامية مختلفة، كمسألة إقرار اليهود بموسى عليه السلام، وإقرار النصارى بعيسى عليه السلام، ثم نقل أحكاماً تقول بأن إقرارهم لا يخرج عن احتماليْ: الادّعاء والإنكار، ثم طرح مسألة موالاة النصارى وذلك في قوله: "ومَن كان على دين مُحَمَّد ﷺ، فدعا من كان على دين عيسى عليه السلام، فأبي أن يستجيب له، ثم رأى منه الوفاء بالإسلام بعد ذلك، فإنه يتولاّه"[3].

ومن المسائل الكلامية القليلة المستوحاة من الواقع الإباضي المغربي، ما نُسب للشيخ أبي عمرو عثمان بن خليفة السّوفي، مِن أنه لقي ذميًّا بقابس (وكانت حينها من مواطن الإباضية) فسأله الذمّي: "حيث أجزتم على الله ﷻ الحبّ والإرادة، فلم لا تجيزون عليه الفرح والسرور، ومن حيث أجزتم عليه السّخط والغضب، فلم لا تجيزون عليه الهمّ والحزن"[4]، ثم أجابه عن حقيقة الفرح والسرور عندما تعتري الانسان بموافقة الهوى، وحقيقة الهمّ والحزن عندما تعتري الانسان بمخالفة الهوى، والله ﷻ لا يجوز عليه ذلك[5]. وعلى ما يبدو فإن اليهودي وجّه سؤاله للسّوفي باعتباره فقيها مسلماً وليس إباضياً، سندنا في ذلك أن المسائل الكلامية حول أهل الذمّة تعبّر عن موقف الاباضية كمذهب إسلامي من أهل الذمّة، ونادراً ما عكست المسائل الجدلية والكلامية ظاهرة تاريخية واقعية في البيئة المغربية. وفي المقابل؛ يمكن الاستنتاج بأنّ التراكم الجدلي حول أهل الذمّة، ساهم في تحديد بوصلة الأتباع تجاه اليهود والنصارى على أرض الواقع، من زاوية الذهنيات.

ولقد شبّهت المدرسة الاباضية فرقة المرجئة باليهود، ونُسب إلى جابر بن زيد قوله: "المرجئة هم يهود أهل القبلة، لأنهم يعدون أهل المعصية بالجنة وقالوا لن تمسنا

1- المارْغَنّي السُّوفي. أبو عمرو عثمان بن خليفة (ت. حوالي: 530 هـ)، كتاب السّؤالات في العقيدة وعلم الكلام، ج1، تح وتع: الحاج عيسى فخّار خضير، مؤسسة منارة الإيمان، غرداية، الجزائر، ط1، 1442 هـ- 2021 م، ص: 684؛ ج2، ص: 100

2- أبو عمار عبد الكافي، الموجز، ج1، ص: 311 وما بعدها؛ المارغنّي السّوفي، السؤالات، ج4، ص: 53 وما بعدها

3- المصدر نفسه، ج2، ص: 154؛ ج4، ص: 373

4- نفسه، ج4، ص: 308

5- نفسه، ج4، ص: 309

النار إلاّ أياما معدودة كما قالت اليهود والنصارى"[1]. ومنها أن الإباضية الوهبية تدين بأن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى والصابئين، ليسوا بمؤمنين ولكنهم مشركون[2]. كما شكل اليهود موضوعا خلافيا بين الإباضية الوهبية وبعض الفرق المنشقة مثل الحسينية والعميرية، حيث أورد النامي مواضع خلافها مع الوهبية، ومنها اعتبار اليهود منافقين[3].

مسائل فقهية:

يمكن لنا من خلال المادة الشحيحة من النوازل المتعلقة بأهل الذمة، تعقّب وفهم طريقة التعامل معهم، والذهنية المتّبعة اتجاههم. وتبقى النصوص الشرعية من الناحية النظرية تؤكد على معاملة أهل الذمة عامة معاملة حسنة، كما وجدوا في الشرع الإسلامي ما يضمن لهم حياة آمنة، حيث نهى الشرع عن إكراههم على اعتناق الإسلام. وفي هذا الصدد رصدت لنا المدونات التاريخية مسألة في وارجلان حول: أنّ مَن "أَكره ذميّا على التوحيد، فهو هالك"[4].

ومن المسائل الفقهية التي صرّحت بها المصادر الإباضية في موضوع أهل الذمّة، "الغزو معهم والسبي معهم"، حيث يرى فقهاء الإباضية كراهة ذلك، وفي حال وقوعه جوّزوا لهم الاستنفاع بالغنيمة في الأكل والشراب وعلف الدواب فقط[5]. ومن جملة المسائل الفقهية التي تحمل فرضية الزواج المختلط بين المسلم والنصرانية في المراكز الإباضية؛ جواب عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم عن مسألة مِن نفوسة، أنّ رجلا نكح نصرانية فحضرها النفاس، وتوفيّت ومعها رضيعها بعد أن صرخ، كيف يصنع بها وكيف الصلاة عليهما ودَفْنهما[6].

كما اختلف فقهاء الإباضية في حكم ناكح إماء أهل الكتاب، بين مَن يجيز نكاحهنّ بمَلْك اليمين، وبين من يحرّم ذلك بحجّة أن النصّ القرآني تحدّث عن حرائر أهل الكتاب، ورغم ذلك فالنسب منهنّ ثابت[7]. وتؤكد مسألة أخرى على قِدَمِ وجود النصارى في

1- النامي، دراسات عن الاباضية، ص: 180

2- المرجع نفسه، ص: 200

3- نفسه، ص: 216

4- مجهول، المعلقات، ص.250.

5- أبو العباس أحمد الفرسطائي، كتاب أبي مسألة، ص: 230

6- عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت: 250 هـ)، كتاب مسائل نفوسة، تح: طلاي إبراهيم، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1991 م، ص: 68

7- السّوفي المارغنّي، السؤالات، ج5، ص: 498-501

منطقة نفوسة وطرابلس، ذلك أن المسألة تحدثت عن محصول ثمار مِنْ أجنّةٍ للنصارى يضعون ثمنها لكنائسهم، والسائل يستفسر جواز شراء تلك الثمار[1].

ويمكننا رصد جدلية القرب والبعد مع فِرق أهل الذمّة من زاوية إباضية، وفْقَ ترتيب معيّن، وضع له فقهاء الإباضية سلّماً خاصاً، من خلال معيار متغيّر الانتقال من ديانة إلى أخرى، ذلك أنه:

- إذا انتقل النصراني الى اليهودية، أجبر على التوحيد، ويترك في حالة العكس
- إذا انتقل اليهودي إلى المجوسية، أجبر على التوحيد، ويترك في حالة العكس
- إذا انتقل المجوسي إلى الوثنية، أجبر على التوحيد، ويترك في حالة العكس.

كما يسمح لهم بالعودة إلى ديانتهم الأصلية، من دون دعوتهم إليها.

ويدقّق السّوفي حول مسألة تغيير الديانة، ويقدم لنا نموذجاً يعبّر عن حالة لا يملك فيها الشخص حرية العودة إلى ديانته السابقة، وهي المتعلقة بشخص نصراني كان ممّن يقول: ثالث ثلاثة، ثم أصبح يهوديا يقول بالإله الواحد، فلا هو يُترَك على يهوديته الجديدة، ولا يمكنه الرجوع إلى القول الأول بَعد أن أقرّ بأن الله إله واحد، فيُجبر عندها على التوحيد[2]. كما ناقشت المصادر جدلية الذمّي الذي لم يسمع بالإسلام، حيث قدّم السوفي احتمالاً قائلاً: "لو أن رجلا على دين عيسى عليه السلام، أو نبي من أنبياء الله عليهم السلام، كان في فلاة من الأرض أو جزيرة من جزائر البحر، ولم يعرف بمبعث النبي عليه السّلام، أنه واسع له المقام على دين عيسى عليه السّلام الذي هو عليه حتّى تبلغه الحجّة"[3].

هذا؛ وتبدو المنظومة الفقهية الإباضية كمثيلتها المالكية، صارمة وحذرة في تعاملها مع اليهود، وهي حريصة على تكوين سند ومرجعية دينية لكلّ الأسئلة الواقعية أو الافتراضية المتعلقة بأهل الذمّة. ومن مسائل محمد بن يعقوب اليراسني، ط.10 (450-

1- عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، كتاب مسائل نفوسة، ص: 141

2- فصّلها أبي الربيع المزاتي في تحفه، قائلاً: "لا يترك نصراني يتهوّد ولا يهودي يتمجّس ولا مجوسي يتوثّن، فإن تهوّد نصراني دعي إلى الإسلام، فإن أجاب إليه قبل منه، وإن رجع إلى منزلته الأولى من النصرانية ترك على ما عليه من ملّته الأولى، وإن أبى من قبول الإسلام ولم يرجع إلى منزلته قتل لردّته، وكذلك اليهودي والمجوسي على هذه المنزلة" ينظر: المزاتي، التحف المخزونة، ج2، ص: 456. السّوفي المارغنّي، السؤالات، ج5، ص ص 494-495.

3- المارغني السوفي. أبو عمرو عثمان بن خليفة، رسالة في بيان كل فرقة، ضمن مجموع، (52-70)، طبعة حجرية، المطبعة البارونية بالجدرية، مصر، (د.ت)، ص: 54

500هـ) "في يهودي زَنَى بامرأة موحّدة؛ قال: يُقْتَلُ بالسيف"[1]. كما وردت مسألة لأبي سليمان داود بن أبي يوسف الوارجلاني[2]، أفتى فيها أنه إذا قال رجل لرجل من أهل الوَلاية: لحيتك كلحية اليهودي، وصفتك كصفة اليهودي، وكرزيتك[3] ككرزيّة اليهودي؛ قال: يبرأ منه بذلك. ويستغرق الفقيه في إحاطة الموضوع بمجموعة من التفاصيل الافتراضية، عندما يحتمل أنه إذا قال: لحيتك وصفتك مثل صفة اليهودي، ومثل لحية اليهودي، قال: ليس عليه شيء[4].

أهل الذمّة في التاريخ الإسلامي:

سجّل أهل الذمّة حضورهم في المصادر الإباضية المغربية من خلال ورود ذِكرهم في سياق أحداث التاريخ الإسلامي منذ عهد النبوّة، حيث كانت معظم الأحداث تتعلق باليهود بحكم قربهم من المسلمين في المدينة المنورة وفي أمصار أخرى. ومن المعلومات التي وردتنا عن تلك الفترة ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يرغب ويحبّ التوجه الى الكعبة في الصلاة، وهي قبلة أبيه إبراهيم وشرف العرب، وأن يُصْرَفَ عن قبلة اليهود[5]، ثم جاء أمر الله ﷻ بموافقة تلك الرغبة في قوله ﷻ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن

1- مجهول، كتاب المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة، ص: 225

2- سليمان داود بن أبي يوسف الوارجلاني: من أهل الطبقة العاشرة توفي 462هـ/1069م. ينظر: الدرجيني، الطبقات، ص437.

3- الكرزية وجمعها الكرازي: نوع من العمامة انتشر بشكل محدود في العالم الإسلامي، ذكره بعض الرحالة والجغرافيين، وَصِفَتُه أنها قطعة مصنوعة من الصوف، يشدّون بها على الرأس، وهي واسعة وطويلة، فيلفّون بها الرأس خمس أو ستّ لفّات بوصفها عمامة، ويبدو أن صفة لبسها تختلف من مكان لآخر. ينظر: دوزي ريهان، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، تر: أكرم فاضل، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط1، بيروت، 2015، ص:300-302

4- مجهول، كتاب المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة، درا وتح: بابزيز سليمان بن إبراهيم الوارجلاني، ط1، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 1430هـ/2009م، ص:68-69

5- الملشوطي. تيبغورين بن عيسى بن داود (ت.ق.6هـ/12م)، الأدلّة والبيان، تح: بابزيز سليمان بن إبراهيم الوارجلاني، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ط1، 1430هـ/2009م، ص:43)

﴿رَّبِّهِمْۖ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1]، وهو التفسير الذي تبنّاه المفسّرون لهذه الآية الكريمة[2].

كما قدّمت لنا تلك المصادر بعض الأخبار عن أحبار بيت المقدس، عند فتح القدس في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وأنّ أهل المدينة اشترطوا قدوم عمر رضي الله عنه حتّى يقرّوا ويُسْلموا، ثم أسلموا على يديه؛ وممن أسلم حينها كعب الأحبار الذي كان يهوديا.

وقد تحدث ابن سلاّم عن اليهودي الذي سمع الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3] وقال: "لو كانت هذه الآية في التوراة لاتّخذنا ذلك اليوم الذي أنزلت فيه عيداً إلى يوم القيامة"[4].

وفي السياق ذاته، تسوق لنا بعض المصادر الإباضية نهي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن زواج الكتابيات حين كَثُرت الموحّدات، واعتبرته نهي تأديب لا نهي تحريم[5]؛ إذ المعروف أن الشريعة الإسلامية تجيز الزواج بالكتابية، والجمع بين الموحّدة والكتابية.

وفي سياق الاستقطاب المذهبي والسياسي، اتّهم ابن سلام بعض حكّام بني أمية بمخالفتهم للسنة في أمور عدّة، ومنها أنهم "استحلّوا ما حرّم الله عليهم من النساء المحصنات والمسلمات وأهل الذمّة"، وأنهم "غدروا بأهل الذمّة اليهود والنصارى، وقد أمر الله بالوفاء لهم بها"[6]. وهو قول قد يتوافق مع شيء من النقد الذي وجّه لبعض خلفاء بني أمية، وهو كذلك قول لا يمكن صرفه عن جدلية جفاء العلاقات بين الإباضية وخلفاء بني أمية، خلال مراحل زمنية متباينة.

1- البقرة، الآية 143.

2- للاستزادة أكثر راجع على سبيل المثال: الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ)، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 2001، ص ص450-452.

3- المائدة، الآية 04.

4- ابن سلاّم، بدء الإسلام، ص: 74، 85

5- أبو العباس أحمد الفرسطائي، كتاب أبي مسألة، ص: 350

6- ابن سلاّم، بدء الإسلام، ص: 100

ومن الواقع المغربي ضمن المجالات الإباضية، تشير بعض المصادر إلى الوجود النصراني في بلاد المغرب، كونه قديما قِدم الدول التي عرفتها المنطقة. كما أشارت تلك المصادر، إلى بعض المناطق البربرية التي كان أهلها يدينون بالنصرانية كجبل نفوسة[1].

وقد ادّعى صاحب الاستبصار أن أصل سكان قسطيلية من بلاد الجريد، كانوا "من بقايا الروم الذين كانوا قبل استفتاح المسلمين لها...لأنهم في حين دخول المسلمين إفريقية أسلموا على أموالهم"[2].

كما تحدّث مؤرخ الدولة الرستمية ابن الصغير، عن وجود أقلية نصرانية في مدينة تاهرت، وذكر أنّ أعلى موضع بالمدينة كان يعرف بالكنيسة[3]، وكانت الجالية النصرانية تشكّل جزءًا من الصورة السياسية والاجتماعية الفوضوية التي شهدتها المدينة في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وأنّ من النصارى من تولى مناصب عُليا في هذه المدينة، وكانوا من خاصّة أئمتها في نهاية عهدهم، بل إنهم شكّلوا جزءاً مؤثراً من وجوه البلد[4].

1- يصعب تأكيد هذه المعلومات، وربما كانت من قبيل التهم التي تكال للفرق المذهبية المخالفة. ينظر: مجهول مراكشي من كتاب ق6هـ/12م، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء-المملكة المغربية، 1985م، ص.144؛ التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، (ت.717هـ/1317م)، رحلة التيجاني، تق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981م،ص.239؛ بالإضافة إلى مقاربات متعلقة بمنطقة الجريد وأريغ تحتمل الربط بين نظام الحلقة عند الإباضية وتنظيمات قديمة قبل الإسلام. أنظر:

Allaoua Amara, La structuration des ibadites-wahbites au Maghreb (11e-15e siècle), Annales islamologiques, N°42, 2008, pp. 270-271.

2- مجهول، الاستبصار، ص.155. ولا نستطيع أن نتأكد من مدى مصداقية هذه الروايات، فربما كانت من باب الأوصاف التي يطلقها بعض المؤرخين للجماعات المخالفة في المذهب. في حين ادّعت بعض الدراسات الاستشراقية أن التواجد النصراني في بلاد المغرب كان أكبر ممّا كانت تصوره المصادر الإسلامية، وأن هذه الأخيرة تسترت على واقع الكنائس والديانة النصرانية في بلاد المغرب حتى بعد قرون من الفتح الإسلامي. أنظر:

Gabriel CAMPS, COMMENT LA BERBERIE EST DEVENUE LE MAGHREB ARABE, p.17.

3- ابن الصغير (ت.295هـ/907م)، أخبار الأئمة الرستميين، تح وتع: ناصر محمد وبحاز ابراهيم، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986م، ص.69.

4- هوبكنز (ج.ف.ب)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تر: أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء-المملكة المغربية، ط02، 1420هـ/1999م، ص.103.

وفي سياق حضور اليهودي في مجالات طرابلس ونفوسة؛ يورد صاحب روايات الأشياخ حديثاً عن جالية يهودية وصفها بـ "يهود جادو" في زمن أبو يحي زكرياء الأرجاني "[1]. وتؤكّد هذه الحادثة على ضعف سلطة الإباضية السياسية والعسكرية، وعدم قدرتهم على تطبيق أحكام الجزية، فالرواية من زاوية إباضية تقول: إن اليهود أرادوا أن يهدوا له مبلغا من المال (40 دينارا) بعد أن سمعوا أنه وُلد له صبي، حيث استضافهم بالعنب في بستانه، ثم ردّ لهم المال وقال: إنه لو قدر على صونهم (حمايتهم) لأخذ منهم أكثر من ذلك المبلغ حق الجزية. وقد كان ذلك مدعاةً لتعجّبهم من ورعه وقالوا لبعضهم: "ما رأينا مثل هذه البلاد، بلدة لا يأخذ سلطانها، ولا يطمع في أموال الناس"[2].

هذا؛ ويبقى الحضور اليهودي هو الأكثر تأثيراً في هذا الإطار، حيث نالت المجالات الاباضية نصيبها من ذلك الحضور، خاصّة وارجلان. وربما كان لاقتصار لفظ "الذمّي" على اليهودي دلالة على فراغ المجالات المغربية من العنصر النصراني[3]، وهو ما أكّده بكر بن حماد التاهرتي، الذي وظّف اليهود في إحدى تشبيهاته باستعمال لفظ "الذمّي"، إذ شبّه فرحته وفرحة سكان تاهرت برؤيتهم الشمس، كما يفرح الذمّي بيوم السبت؛ يوم عطلته، فقال:

نَفْرَحُ بِالشَّمْسِ إِذَا مَا بَدَتْ كَفَرْحَـــةِ الذِمِّي بِالسَّبْتِ[4]

ولقد شكّل اليهود في ذهنية الإنسان المغربي صفتين متناقضتين، الأولى صفة موغلة في السلبية تحذّر منهم ومن مكرهم، وتستنكر شكلهم وزيّهم، والثانية صفة إعجاب بذكائهم وفطنتهم. ومما يُساق من الأمثلة هاهنا، ما قاله أحد فقهاء وارجلان لراعي غنمه عن صفة تكديس المال؛ أنه لا يطمح إلى زيادة عددها، ولا يريد أن يكون كاليهود[5]. ومن الصور النمطية التي التصقت بمخيلتهم كذلك، أن اليهودي شخص ذميم الوجه، وهو ما

1- أبو يحي زكرياء الأرجاني (ت. قبل 325هـ/936م) حاكم جبل نفوسة (آخر إمام دفاع في الجبل بعد سقوط الرستميين)، ينظر: البغطوري، روايات الأشياخ، ص: 316؛ معجم أعلام الاباضية، ج2، ص: 157

2- البغطوري، روايات الأشياخ، ص: 316-317

3- بشير عبد الرحمان، اليهود في المغرب الإسلامي واسبانيا المسيحية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط01، 1435هـ/2014م، ص.52.

4- الدرجيني، الطبقات، ج01، ص.43

5- هو عبد الله بن مانوج، الطبقة التاسعة (450-500هـ). الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص.401.

أشار إليه صاحب السِّير الذي وصف رجلا من النكّار وعايره تسفيهاً وتحقيراً، وقال عنه إنه "ذميم الصورة، أشبه شيء باليهود"[1].

وفي السياق ذاته، طُرحت نازلة فقهية على فقيه؛ فَحْوَاها فيمن يشبّه المسلم باليهودي، كأن يقولَ "رجلٌ لرجلٍ من أهل الوَلاية: لحيتك كلحية اليهودي، وصفتك كصفة اليهودي، وكرزيتك ككرزية اليهودي"[2]، فهل يبرأ من القائل؟ ففي هذا المثال دلالة واضحة على الانطباع السلبي الذي كان يتركه شكل اليهودي في نفسية الإنسان المغربي المسلم.

وأما في حالات الإعجاب بالجانب الإيجابي لليهودي والاعتراف لهم بالذكاء، يذكر أبو زكرياء حادثتين تاريخيتين تعبّر كلاهما عن أفضلية اليهود في اختراع الحيل الموصلة إلى النجاة؛ الأولى: عن يهودي أشار على سكان وارجلان أثناء تعرضهم لحصار العبيديين بحيلة أفضت إلى فكّ الحصار عن مدينتهم، والثانية: عن يهودي يعمل في البلاط العبيدي، أشار على أبي نوح سعيد بن زنغيل[3] وهو ممّن قام بثورة فاشلة على الدولة العبيدية، وانتهى به الأمر في بلاطهم. وقد كان المعز لدين الله العبيدي يودّ اصطحابه إلى مصر حسب الرواية الإباضية، ولأنه كان يفضّل البقاء -أبو نوح سعيد بن زنغيل - فقد نصحه اليهودي باتّباع حمية غذائية معينة تبديه مريضا وغير قادر على المسير إلى مصر رفقة المعز وجيشه[4].

وفي سياق آخر ذي صلة، اتّهم أبو نوح سعيد بن زنغيل أهل وارجلان بالفرقة، وبتوظيفهم لليهود في شؤونهم وخلافاتهم، يستشف ذلك مما أورده أبو زكريا بقوله: "مسجدنا ومسجدكم، وطائفة يقولون حصيرنا وحصيركم، ويهودنا ويهودكم"[5].

الخاتمة:

ذكرت المصادر الإباضية أهل الذمّة تحت مسمّى "أهل الكتاب" في قضايا التأصيل العقدي والفقهي، وفي تبيان حقوقهم وواجباتهم وعلاقتهم بالمسلمين، ونادراً ما عبّرت عنهم بلفظ "أهل الذمّة". كما استعملت المصادر الإباضية لفظي النصارى واليهود

1- أبو زكرياء الوارجلاني، المصدر السابق، ص.158.

2- مجهول، المعلقات، ص.68.

3- سعيد بن زنغيل؛ أبو نوح: عاش في أوائل ق4هـ/10م، وهو من أهل الجريد التونسية، استوطن وارجلان بالجزائر. ينظر: محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية، ج2، ص ص176-177، ترجمة رقم: 390.

4- ينظر حول الحادثتين: أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ص.113، 145، 150

5- أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ص.162.

على وجه التخصيص، وكان واضحا أن الغلبة في الاستعمال كان لصالح لفظ "اليهود"، فبعض المصادر تذكر لفظ "اليهود" أو "اليهودي" فقط ولا تذكر "النصارى"، وفي مصادر أخرى يأتي الذكر عليهما معا، ويكون الحضور الأكبر لليهود.

وكثيراً ما تداولت الكتب الإباضية (مصادر ومراجع) مثلها مثل الكتب السنية، أهل الكتاب من خلال شرح العقيدة الإسلامية وتفسير القرآن الكريم، ويأتي ذكرهم في سياقين مختلفين:

- الأول: احترام ديانتهم باعتبارها ديانة سماوية وعدم إجبارهم على الإسلام، وحسن التعامل معهم وإمكانية التعايش معهم الذي يصل إلى حدّ التبادل التجاري كمظهر اقتصادي، والزواج من نسائهم كمظهر اجتماعي.
- الثاني: إظهار زيغهم وضلالهم من خلال الآيات الكثيرة، كتطاولهم على الله سبحانه وتعالى في الأمور التشبيهية[1] مثلما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2].

كما استأثر اليهود بالحضور في الدراسات القرآنية مقارنة بالنصارى، ربما تبعا لغلبة حضورهم في القرآن الكريم. ومجمل مسائل الكلام حول أهل الذمّة التي جاءت في مصادر الإباضية، تصنّف ضمن معتقدات الإباضية التي بيّنت موقفها من أهل الذمّة وحدّدت لأتباعها العلاقة معهم. وهي في الغالب مسائل لا تستهوي العامة، ولا تعكس يومياتهم، فضلاً عن كونها لا تعبّر بالضرورة عن الواقع المغربي، خاصة عندما يسأل أهل الذمّة فقهاء الإباضية ويستفسرون حول مسائل كلامية، فإن ذلك يكون باعتبارهم فقهاء مسلمين، بعيداً عن انتمائهم المذهبي.

ولقد تواجد النصارى في المدن الكبيرة الساحلية بشكل كبير، في حين انتشر اليهود في كلّ المناطق، وأظهروا قدرة على التأقلم مع المجتمع المغربي المسلم باختلاف

1- النامي. عمرو خليفة، دراسات عن الاباضية، تر : ميخائيل خوري، مرا: ماهر جرّار، تد وتع: محمد ناصر ومصطفى باجو، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط2، 2012م، ص: 164، 166

2- المائدة، الآية 66.

مذاهبه، ولا يخرج تفسير الظاهرة عن السياق التاريخي لليهود، الذين ألِفوا حياة الشتات واقتنعوا بها.

وأثناء البحث حول موضوع أهل الذمّة في المصادر الإباضية، وطيلة محطّاته، راودتنا تساؤلات في كل محطّة عن أوجه المقارنة بين المالكية والإباضية في رؤيتهما لأهل الذمّة. وإذْ أننا نفترض ونرجّح أنّ كل ما أوردته المصادر الإباضية بشأن أهل الذمّة من مسائل عقدية وفقهية وكلامية، يوجد ما يوافقه في مصادر الفقه السنيّة. ولأن سياق بحثنا لا يسمح لنا بالسير في منحى المقارنة، فإننا ندعو إلى ضرورة البحث في موضوع أهل الذمّة بين المذهبين المالكي والإباضي.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، رواية ورش

البرادي. أبو القاسم بن إبراهيم، هذه رسالة في الحقائق المحتاج إليها، ضمن مجموع (28-51)، طبعة حجرية، المطبعة البارونية بالجدرية، مصر

بشير عبد الرحمان، اليهود في المغرب الإسلامي واسبانيا المسيحية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط01، 1435هـ/2014م

البغطوري النفوسي. مقرين بن محمد، روايات الأشياخ. أشياخ جبل نفوسة الشهير بسير البغطوري، تح: بوعصبانة عمر بن لقمان، مكتبة خزائن الآثار، سلطنة عمان، ط1، 1438هـ/2017م.

التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، (ت.717هـ/1317م)، رحلة التيجاني، تق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981م

الثلاثي. عمر بن رمضان، كتاب نخبة المتين من أصول تبغورين، ضمن مجموع: كتب مختارة، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، (د.ت)

دوزي ريهان، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، تر: أكرم فاضل، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط1، بيروت، 2015

أبو حفص عمرو بن جُميع (حي ما بين ق.7-8 هـ)، عقيدة العزابة، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط1، 1417 هـ- 1996 م

أبي خزر يغلا بن زلتاف (ت: 380 هـ- 990م)، الرد على جميع المخالفين (الخوارج، المرجئة، المعتزلة)، تح: عمرو خليفة النامي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ط1، 1428 هـ - 2008 م

الدرجيني "أبو العباس أحمد بن سعيد" (ت.670هـ/1271م)، طبقات المشايخ بالمغرب، ج01، ج02، تح: طلاي ابراهيم، (د.م)، (د.ن)، (د.ت).

أبو زكرياء "يحي ابن أبي بكر" (ت.471هـ/1078م)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح و تع: اسماعيل العربي، الجزائر، المكتبة الوطنية، 1399هـ/1979م.

ابن سلّام الاباضي (ت. بعد 273هـ/887م)، كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدّين، تح: قيرز شفارتز والشيخ سالم بن يعقوب، فرانز شِتايز، قِسْبادن، ألمانيا، 1406هـ/1986م.

ابن الصغير (ت.295هـ/907م)، أخبار الأئمة الرستميين، تح وتع: ناصر محمد وبحاز ابراهيم، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986م

عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت: 250 ه)، كتاب مسائل نفوسة، تح: طلاي إبراهيم، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1991 م

أبو عمار عبد الكافي التناوتي الوارجلاني، آراء الخوارج الكلامية، تح: عمار طالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398 ه-1978 م

عمروس بن فتح النفوسي. أبو حفص، أصول الدينونة الصافية، تح: كرّوم حاج أحمد، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط1، 1420 ه- 1999 م

المارْغَني السّوفي. أبو عمرو عثمان بن خليفة (ت. حوالي: 530 ه)، رسالة في بيان كل فرقة، ضمن مجموع، (52-70)، ط. حجرية، المطبعة البارونية بالجدرية، مصر، (د.ت)

ـــــــــــــ، كتاب السّؤالات في العقيدة وعلم الكلام، ج: 1، 2، 3، تح وتع: الحاج عيسى فخّار خضير، مؤسسة منارة الإيمان، غرداية، الجزائر، ط1، 1442 ه- 2021 م

مجهول، كتاب المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة، درا وتح: بابزيز سليمان بن إبراهيم الوارجلاني، ط1، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 1430ه/2009م

مجهول مراكشي من كتاب ق6ه/12م، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء- المملكة المغربية، 1985م

المزاتي. أبو الربيع سليمان بن يخلف (ت.471ه/1079م)، التحف المخزونة، تح: محمود بن جمعة الأندلوسي، مكتبة خزائن الآثار، سلطنة عمان، ط1، 1438ه/2017م.

تيبغورين بن عيسى بن داود (ت.ق.6ه/12م)، الأدلة والبيان، تح: بابزيز سليمان بن إبراهيم الوارجلاني، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ط1، 1430ه/2009م

النامي. عمرو خليفة، دراسات عن الاباضية، تر: ميخائيل خوري، مرا: ماهر جرّار، تَدْ وتع: محمد ناصر ومصطفى باجو، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط2، 2012م

هوبكنز (ج.ف.ب)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تر: أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء-المملكة المغربية، ط02، 1420ه/1999م

Allaoua Amara, La structuration des ibadites-wahbites au Maghreb (11e-15e siècle), Annales islamologiques, N°42, 2008

CAMPS Gabriel, COMMENT LA BERBERIE EST DEVENUE LE MAGHREB ARABE, Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°35, Aix-en-Provence, 1983, pp. 7-24